أين تقع فلسطين؟

على الرغم من أن مسألة فلسطين ليست لغوية، فإن الصراع باللغة وعلى اللغة، يؤدي دوراً كبيراً في رسم ملامح الحاضر، فالتلاعب بالاسم الفلسطيني كان مقدمة لإحداث تغييرات فعلية حملت، في بعضها، أبعاداً كارثية.

في وعد بلفور لم يُذكر الشعب الفلسطيني كشعب، وكان ذلك مقدمة لحذفه من خريطة المكان. وعشية حرب النكبة استُبدلت فلسطين باسم أرض إسرائيل، وكان ذلك إعلاناً ببداية كارثة الطرد الكبير. وبعد تأسيس الدولة العبرية بذل الصهيونيون جهداً كبيراً من أجل استبدال أسماء الأماكن الفلسطينية بأسماء عبرية وتوراتية. وبعد الهزيمة الحزيرانية أطلق الإسرائيليون اسم يهودا والسامرة على الضفة الغربية المحتلة، وإلى آخره...

ومع الهيمنة الشاملة لليمين القومي الديني على إسرائيل، نكتشف أن ما بدا مجرد هوس توراتي دفع القوميين المتدينين إلى استخدام اسم يهودا والسامرة، تحوّل اليوم إلى سياسة إسرائيلية رسمية، مع التغوّل الاستيطاني الذي صار عنوان إسرائيل التي تقوم برسم حدودها الجديدة على أنقاض ما تبقّى من أرض فلسطين.

الاسم، في هذا الصراع الدموي الطويل في فلسطين، ليس قناعاً، وإنما هو مرآة النيات، ولذا علينا أن نتعامل مع الكلمات بجدّية، فالكلمة لا تعبرّ عن الحاضر فقط، بل تشير إلى احتمالاته المستقبلية أيضاً.

حين نسأل أين تقع فلسطين اليوم، وسط لحظة التخبّط وضياع الرؤية اللذين يجري فيهما تحويل القضية إلى ساحة للصراعات الإقليمية، نكون كمَن يعيد النظر في دلالة الكلمات. فهذا التجاذب الإقليمي الذي صنع مؤتمرَي طهران وإستانبول، وذاك التكلّس الذي كشفه مؤتمر حركة "فتح" في رام اللـه، يطرح سؤالاً مشابهاً للسؤال الذي طُرح بعُيد حرب النكبة الأولى، وهو سؤال الاسم الفلسطيني المهدد بالغياب، والتساؤل عن المكان الضائع، أو الذي هو في طريقه إلى الضياع.

بعد سنة ١٩٤٨ طُرح السؤال وتعددت الإجابات.

هل تقع فلسطين في غزة مع حكومة عموم فلسطين؟ أم في مؤتمر أريحا الذي أعلن ضم الضفة الغربية إلى شرق الأردن في المملكة الهاشمية؟ أم في ثنايا الخطاب القومي الذي صار وعده بالتحرير وعيداً حوّل مخيمات اللاجئين إلى غيتوات؟

يومها اتخذ السؤال شكلاً تراجيدياً، ففلسطين صارت تقع في الغياب، وبدا أن فعل المضارع: "تقع"، تخلّى عن مضمونه الحديث الذي يدلّ على اسم المكان، واستعاد معناه الكلاسيكي الذي نعثر عليه في المعاجم العربية، حيث يحمل فعل "وقع" معنى السقوط، وحيث الموقع هو اسم مكان السقوط. جاء في "لسان العرب": "وقع على الشيء ومنه يقع وقعاً

ووقوعاً: سقط. ... والموقع والموقعة: موضِع الوقوع." كما أن كلمة "الواقعة" تعني القيامة.

هناك طبعاً دلالات متنوعة للكلمة، لكنها كلها تشير إلى معنى السقوط، وبهذا يصير سؤال أين تقع فلسطين مرتبطاً بهذه الدلالات.

بعد اليقظة من صدمة الغياب والسقوط، اتخذ المسار الفلسطيني أشكالاً متنوعة، وتبلور في أربعة مراحل سنحاول رسم ملامحها العامة، منبّهين إلى أن رسم هذه الملامح لا يغنينا عن دراسة تفصيلاتها من أجل استخلاص دروسها.

المرحلة الأولى هي الوطن الرمزي، فمنظمة التحرير التي أسسها النظام الإقليمي العربي في أواسط ستينيات القرن الماضي، بقيادة مصر الناصرية، سرعان ما تحولت رمزيتها التي لم تحمل سوى مضمون استعادة الاسم الفلسطيني، إلى رمزية وحّدت الشعب الفلسطيني في الوطن المحتل والشتات في إطار المقاومة المسلحة، وكان ذلك جرّاء الهزيمة المروعة التي مُنيت بها الجيوش العربية في ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧. صارت منظمة التحرير بقيادة المنظمات الفدائية إطاراً نضالياً ووطناً رمزياً في آن معاً، وشكلت عنوان الحضور الفلسطيني بعد غياب وتغييب داما عشرين عاماً.

خاض هذا الوطن الرمزي نضاله الأساسي من خارج الأرض المحتلة، ودخل في صدامات وحروب أثخنته بالجراح، من أيلول الأسود في سنة ١٩٧٠ في الأردن، إلى حرب لبنان الأهلية الطويلة والمدمرة. وكانت جراح هذه الحروب وخيباتها مدخلاً إلى الحرب الإسرائيلية ـ الفلسطينية الأولى التي جرت في سنة ١٩٨٢، خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان، وانتهت بهزيمة عسكرية فلسطينية، لكن منظمة التحرير خرجت من هذه المواجهة بتأكيد رمزيتها السياسية وقدرتها، على الرغم من مذبحة شاتيلا وصبرا، على التمسك بوحدة الشعب الذي حافظ على بيته الرمزي.

عنوان **المرحلة الثانية** كان الانتفاضة الأولى في سنة ١٩٨٧. فالانتفاضة الشاملة التي اجتاحت جميع أنحاء الأرض الفلسطينية التي احتُلت منذ سنة ١٩٦٧، جاءت بعد حرب المخيمات الإجرامية في لبنان، لتعلن أن المقاومة التي دارت طويلاً حول فلسطين وجدت أرضها. في فلسطين دخلت كلمتان جديدتان إلى القاموس الفلسطيني العصيّ على الترجمة، هما مصطلحا: الانتفاضة والشباب اللذان أُضيفا إلى مصطلحات: النكبة والفدائي والكوفية.

هل كان مهندسو اتفاق "أوسلو" يعلمون أن هذه المصطلحات الخمسة لم تولد من عدم لغوي، وإنما جاءت من رحم الألم والدماء؟ وإذا كانوا يعلمون ذلك، فلماذا استهانوا بالكلمات واستعجلوا توقيع اتفاق أفرغ القاموس الفلسطيني من معانيه؟

نستطيع أن نكتب تاريخ الألم الفلسطيني كله إذا قرأنا هذه الكلمات الخمس في سياقها التاريخي، كما نستطيع أن نتلمس الحلم الفلسطيني إذا وضعنا هذه الكلمات في إطار النضال من أجل الحق والحقيقة، فالكلمات كائنات تنبض بالحياة، والتعامل معها بصفتها حروفاً صماء، يصيب مَن يفعل ذلك بالصمم.

أمّا **المرحلة الثالثة** التي امتدت من بداية تطبيق اتفاق "أوسلو" في سنة ١٩٩٣ إلى هزيمة الانتفاضة الثانية في سنة ٢٠٠٣، فطغى عليها الالتباس والتأويل وعدم وضوح الرؤية. تنازلات "أوسلو"، حولت الثورة إلى جهاز دولة لا تتمتع بالحد الأدنى من صفات الدول. والوطن الرمزي الذي أسسته منظمة التحرير بدأ في التلاشي، وصار الشتات عبئاً على السلطة يجب التخفيف من حضوره لمصلحة مشروع سلام غامض وغير محدد الملامح. وقد ظهرت ثقوب "أوسلو" كلها خلال الانتفاضة الثانية التي التبست فيها الوسائل، ولم يكن هدفها واضحاً. وكانت الكارثة التي جسّدها صعود القاعدة وأحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، المناسبة الذهبية التي سمحت بسحق المقاومة الفلسطينية وتدمير رموزها الواحد خلف الآخر، وصولاً إلى الحصار الذي فرضته إسرائيل عسكرياً، وفرضه النظام الدولي والعربي سياسياً على "المقاطعة"، تمهيداً لاغتيال ياسر عرفات.

جاءت هزيمة الانتفاضة الثانية كاستكمال لوأد الانتفاضة الأولى تحت حبر اتفاق أوسلو. صيغ هذا الاتفاق كمحاولة قام بها الوطن الرمزي (أي منظمة التحرير) لإنقاذ نفسه كمؤسسة من الاندثار تحت ضغط عالم جديد انبثق بعد "عاصفة الصحراء" الأميركية، وبدا أنه يؤسس لعالم أحادي القطب ينتهي معه التاريخ، بحسب منظّري تلك الحقبة. وقد تمت محاولة الإنقاذ هذه عبر ابتلاع الوطن الرمزي لما تبقّى من أرض الوطن، في تصوّر وهمي بأن عودة الجهاز السياسي والبيروقراطي ـ العسكري إلى الوطن تعني عودة الوطن.

نحن اليوم في **المرحلة الرابعة** التي بدأت بالوهم وانتهت إلى الوهن. في هذه المرحلة تمّ تهميش منظمة التحرير لمصلحة سلطة لا سلطة لها، وصُفّيت المقاومة المسلحة في الضفة الغربية تحت سقف التنسيق الأمني، وتحوّل العنوان الفلسطيني الذي ربما كان الإنجاز الوحيد لمرحلة ما بعد اتفاق "أوسلو" إلى عنوانَين بسبب الانقسام المدمّر الذي أوصلنا إلى سلطتين فلسطينيتين محاصرتين ومعزولتين، وبدأت الرياح تتلاعب بسفينة موشكة على الغرق، وبعنوان بدأ يتلاشى.

عالم اليوم يكتب ملامحه الجديدة يمين شعبوي في الغرب، ويمين قومي ديني في إسرائيل، وانهيار عربي شامل يتجسّد في الكارثة السورية، وفي وهم بعض الأنظمة العربية بأنها تستطيع الاحتماء بإسرائيل، وفي عجز فلسطيني عن بلورة رد على الضم الزاحف والامّحاء المحتمل. في هذا الزمن يصير السؤال أين تقع فلسطين مُلحّاً وضرورياً. هذا السؤال ليس نتيجة المؤتمرين الإقليميين اللذين عُقدا في طهران وإستانبول، أو للخيبة التي نجمت عن لا مفاجآت مؤتمر "فتح" في رام الله، فهذه المؤتمرات جاءت بالشكل والمضمون اللذين أتت بهما بسبب ذهاب فعل "تقع" إلى موقعه في المعاجم القديمة. ففلسطين التي يفترسها العجز وانهيار الإرادة، تقع اليوم في خضم التجاذب، وصارت ساحة للصراعات الإقليمية، وملعباً يسمح للعنصرية الصهيونية بالعمل على تحقيق شهوتها في طرد فلسطين من المكان.

صحيح أن الانهيار العربي يتحمّل أيضاً مسؤولية الهاوية التي تُعَدّ لفلسطين، غير أن الاختباء خلف مسؤولية الآخرين ونفي مسؤولية القيادات الفلسطينية لن يضيف إلى الهوان سوى هوان جديد.

إنها مرحلة كاملة تنتهي وتتجرجر على أرض التاريخ العربي الحديث، لكن فلسطين لن تسمح لوطن رمزي احتضن آلام شعب كامل بأن يتحول إلى وطن افتراضي لا وجود له. فلسطين لن تموت ولن تتفكك حروف اسمها المجبول بالتضحيات، فهناك دائماً مَن سيأتي ليقرع "جدران الخزّان"، ويلتقط الاسم من ركام الهزيمة، معلناً أن "سيدة الأرض" لا تغادر أرضها.

الفدائي الجديد

انتظرهم باسل الأعرج في شقة صغيرة في مخيم قدورة، بين البيرة ورام الله. وبعدما قتلوه، وجرّوا جثته على الأرض واختطفوها، لم يعثروا في شقته سوى على مجموعة من الكتب والمجلات وكوفية وبندقيتين. وكان دم الشهيد يبقّع الأرض ويصبغ الكلمات بالمعاني. كان باسل يقرأ غرامشي كي يقارن بين ملامح المثقف العضوي الذي صاغه هذا الثائر والفيلسوف الإيطالي، وبين ملامح "المثقف الفلسطيني المشتبك" الذي بدأ باسل الأعرج يتلمس ملامحه من خلال تجربته وتجربة رفاقه في الحراك الشعبي الشبابي الفلسطيني.

باسل الأعرج في صورة تداولتها مواقع إلكترونية

أطلقوا على مجموعتهم اسم "الحراك الشعبي الشبابي"، وابتعدوا عن المناخات القديمة والأسماء التي فرغت من الدلالات وابتذلتها التنازلات وأوهام السلطة.

مجموعات من المناضلين لا نعرف أسماءهم ولم نرَ وجوههم. ومثلما فعل أسلافهم الفدائيون الذين غطّوا ملامحهم بكوفية ثوار ١٩٣٦،

تغطّى الفدائيون الجدد بالعمل السرّي، وبالتصويب على العدو الرئيسي الذي يتجسد في الاحتلال الإسرائيلي وفي الدولة الصهيونية.

"المثقف المشتبك" عند باسل الأعرج يذكّرنا بقصة "زمن الاشتباك" لغسان كنفاني. فالاشتباك يتم في لحظتين متكاملتين: الالتحام بالناس، ومواجهة العدو المحتل. عرف باسل ورفاقه منذ اللحظة الأولى أن "كل البنادق يجب أن توجه نحو العدو." لم يملكوا سوى إرادتهم وقرارهم بالدفاع عن حقهم في الحياة.

كان باسل حالماً، فالثورات لا تبدأ إلاّ بالذين يحوّلون الحلم إلى ممارسة نضالية. وكان يعرف أنه محاصر بزمن التدجين والخوف. فاقترح على "المثقف المشتبك" أن يبدأ من لحظة نضال فردية لا بد من عبورها وعبور صحرائها كي تُشعل الشرارة السهل بكامله.

في مواجهة سياج التدجين الذي بنته السلطة التي لا تزال تتمسك بالوهم، وأمام جدران الخوف التي سيّجتها نماذج القمع الوحشي الذي يفكك دول المشرق العربي، وكردة فعل على هول النكبة التي تستمر في القدس وبقية أنحاء الضفة الغربية حيث يجد الاحتلال نفسه متحرراً من أي عائق يتصدى لجنونه، ولد المثقف الفدائي من جديد. قرّر هذا الصيدلي الشاب، وهو يشهد كيف وُوجهت انتفاضة السكاكين العفوية والفردية بالقمعَين الإسرائيلي والسلطوي، أن يتوّج هذه الانتفاضة اليتيمة بفعل ثوري يعطيها دلالاتها بصفتها مخاضاً طويلاً من أجل ولادة الفدائي الفلسطيني الجديد.

بدأ مسار اغتيال باسل الأعرج حين اعتقلته السلطة مع رفاقه: محمد حرب ومطلع سياج وسيف الإدريسي ومحمد السلامين وعلي دار الشيخ في نيسان/أبريل ٢٠١٦ بتهمة الإعداد لعملية ضد المستوطنين، فتعرضوا للتعذيب، ولم يُفرَج عنهم إلاّ في كانون الأول/ديسمبر بعد إضرابهم عن الطعام، لكنهم أُحيلوا على محكمة الجنح في رام الله بتهمة حيازة سلاح غير مرخص. ومنذ لحظة إطلاقهم بدأت مطاردتهم من طرف جيش الاحتلال الإسرائيلي، فاعتُقلوا جميعاً باستثناء باسل الأعرج الذي نجح في الاختفاء.

فجر الاثنين ٦ آذار/مارس ٢٠١٧، اقتحمت قوات الاحتلال التي دخلت إلى المنطقة "ألف" التي من المفترض أن تكون تابعة للسلطة الأمنية الفلسطينية، المنزل حيث اختبأ الفدائي، وقامت بإعدامه رمياً بالرصاص قبل أن تُصدر محكمة رام الله حكمها عليه!

ينتمي هذا الفدائي الشهيد إلى سلالة "العادلين"؛ إنها سلالة الثوريين الذين لم تلوّثهم السلطة أو المال. عادلون يناضلون من أجل العدالة للمضطهدين والمقموعين، ولا يأبهون لعدالة مجرمي الحرب الذين نصّبهم زمن الخنوع في موقع القضاة.

في وصيته، كتب الشهيد بلاغة الصمت الذي يحوّل الكلمة إلى فعل، وأمام جثمانه قال والده للضابط الإسرائيلي: "الله يرضى عليه، عمري ما شفتو أحلى من اليوم."

لم يقضِ باسل في اليأس، بل في ما بعد اليأس، هناك حيث تبدأ براعم الحياة في

التفتح، وكتب لنا في وصيته أن علينا، نحن الأحياء، أن نبحث عن الأجوبة الملائمة.

إنها براعم أفق جديد لا يزال غامض الملامح، يتعلم أبجديته الجديدة في الممارسة، ويقترح احتمالات متعددة تدعونا إلى قراءة النص الحي الذي كتبته الكلمات والدماء.

وكان على هذا الشاب أن يعلن بموته بداية نهاية زمن الهوان الفلسطيني. ■

الياس خوري

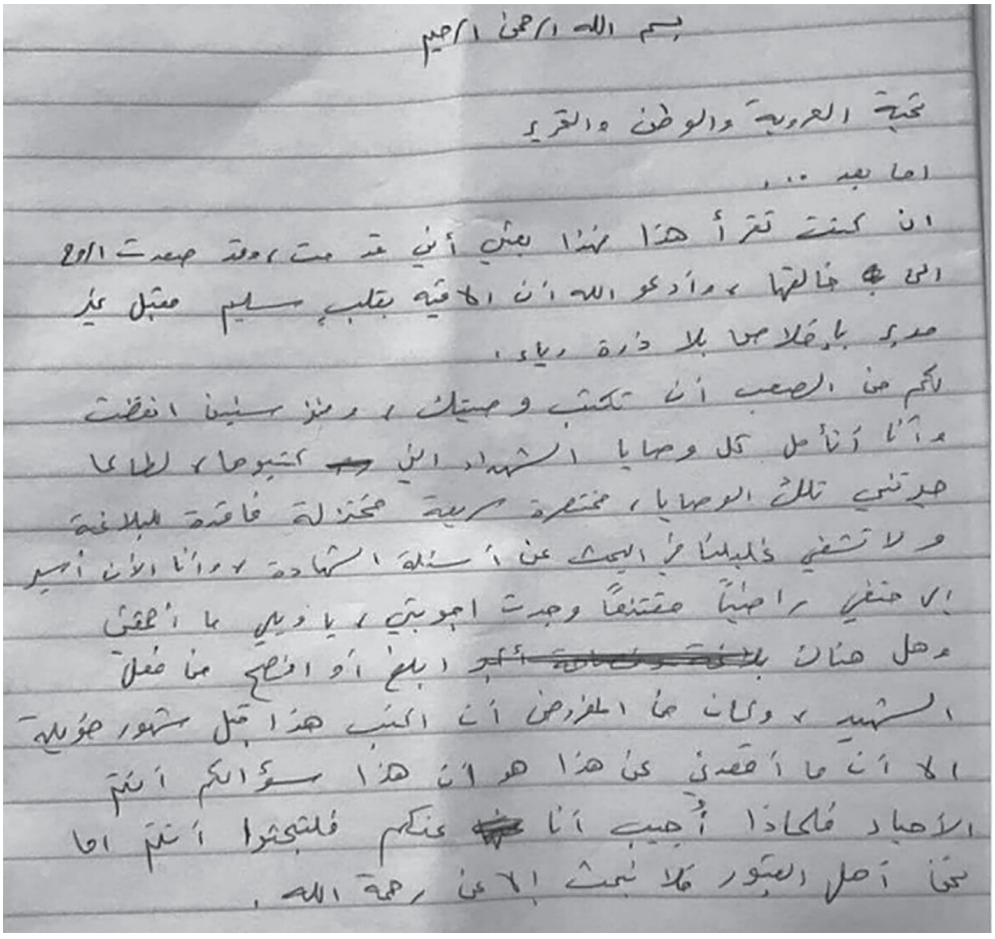

بسم الله الرحمن الرحيم

تحية العروبة والوطن والتحرير

أما بعد..

إن كنت تقرأ هذا فهذا يعني أني قد مت، وقد صعدت الروح إلى خالقها، وأدعو الله أن ألاقيه بقلب سليم مقبل غير مدبر بإخلاص بلا ذرة رياء.

لكم من الصعب أن تكتب وصيتك، ومنذ سنين انقضت وأنا أتأمل كل وصايا الشهداء التي كتبوها، لطالما حيرتني تلك الوصايا، مختصرة سريعة مختزلة فاقدة للبلاغة ولا تشفي غليلنا في البحث عن أسئلة الشهادة، وأنا الآن أسير إلى حتفي راضياً مقتنعاً وجدت أجوبتي، يا ويلي ما أحمقني، وهل هناك أبلغ أو أفصح من فعل الشهيد، وكان من المفروض أن أكتب هذا قبل شهور طويلة إلا أن ما أقعدني عن هذا هو أن هذا سؤالكم أنتم الأحياء فلماذا أجيب أنا عنكم فلتبحثوا أنتم أما نحن أهل القبور فلا نبحث إلا عن رحمة الله.

وصية الشهيد باسل الأعرج